

## أقصوستان

[ كتب الأديب الفرنسي مارسيل أوران هاتين  
الأقصوستان خاصة لليلة . ]

### الصاروخ

في الخامسة والستين من عمره اشترى أوجست بليزو ، زوج فوزين ووالد إميل ، دراجة جديدة ذات لون أزرق صاف من طراز إيجلون . وقال القوم : « في الخامسة والستين ، إنه لمجنون ! » وتأهبوا للضحك ولكنهم لم يضحكوا . ولا أدري أين تعلم الركوب . ربما كان ذلك في الغاية ، وربما كان في الليل . لقد بدا ذات مساء ممتطيا دراجته وعبر القرية وهو مشدود الأعصاب ، من غير شك ، وثابت النظرات ، ولكنه لم يقع قط . ومنذ تلك الليلة ، كان يذهب كل مساء على دراجته الزرقاء حاملا لامرأة الكاتب لثرا من اللبن كانت تحب أن تشربه ولما يزل دافئا من ضرع البقرة . وكانت النسوة يخرجن إلى عتبة أبوابهن فيرفعن أيديهن قائلات : « أتصابي يا أوجست ؟ » فيحيين برأسه دون أن يلتفت إليهن . وتبقى فوزين نصف محتبئة بالخرن تتابع رجلها بنظرها ما وسعتها المتابعة . ويقول لها النساء : « زوجك يا فوزين ، إنه يستطيع أن يعلم الشباب » فتنق غضبا ورضا . لقد تغير شيء ما بالمنزل منذ شراء هذه الدراجة ؛ إذ قل صراخ فوزين وعلا صوت أوجست .

لم يضحك القوم ولكنهم بدءوا يسمون . وترى أوجست ساعة وصوله منزل الكاتب يدع الدراجة أمام الباب . وهكذا بقيت أول الأمر خمس دقائق ، ثم عشر في يوم آخر ، ثم ربع ساعة . وأخيرا كان أوجست بليزو يدخل الدراجة معه . فالكاتب في الصيد ولا يعود إلا مع الليل . ويردد الناس : « يالك من لعين يا أوجست ! » حتى سمعوا ذات يوم عواء فوزين يعلو ويشد كما لم يسمعهوه

قط من قبل . ونحن بالمدرسة ، نتدافع بالمناكب كلما تطلعننا إلى إميل . في ذلك العام ، كان إميل يحتفل بالمناولة الأولى ، فتعدى كالعادة المتبعة عند زميله في المناولة ( والزمالة في المناولة تربط بين الزملاء مدى الحياة ) وأتى الزميل بدوره ليتعشى عند إميل . وحضرت تلك الوليمة بصفتي جاراً لهم كما حضرتها ابنة عمهم وقد هرعت من المدينة لتشهد ذلك الحفل . وقال الأب وهو يعلق إناء اللبن بدراجته : « اجلسوا لن ألبث أن أذهب حتى أعود » . ورأينا لون إميل المصفر يزداد امتقاعاً على حين اقتربت الأم من رجلها وهي تهمس له بكلمات وعليها مظهر التهديد : « وليمة المناولة ؛ يجب ان تسلك سلوكاً مناسباً » ولم يبد على أوجست أنه سمعها ، بل امتطى دراجته وهو يبتسم ؛ وكان حليق اللحية ناضرها ، قد وخط الشيب شاربه ولكنه رقيق مذهب ، وكان مشمر الساعدين وطرفاً سراويله مثبتان بالمشابك ، وتخرج في سيره ثم ابتعد وهو معتدل القامة ، مرتفع الرأس ، ومنكباه إلى جانبيه .

كانت فوزين تردد دائماً : « ليس هناك من هم أفقر منا . » ولكنها رغم بخلها صممت على الاحتفال بذلك اليوم ، فسيكلم الناس عن الوليمة وعن الحساء ، وعن الأرنب وعن المحار وعن النبيذ العتيق الذي أعقب الجديد . وكانت تقول : « أليس هذا عظيماً ! كلوا . كل يا هنرى . كل يا مارسيل . كل يا ابنة عمي . إن وليمة المناولة لا تقام كل يوم . » ولما رأى إميل أمه بهذا اللطف ، أخذ تزمتة يزياله وهو المتوتر دائماً ، الجاد دائماً ، الخجول أبداً ، فأفرغ كأسه ، وقالت له أمه : « ضع شيئاً من الماء » . « نعم يا أماه ، لا تشغلي نفسك بي . »

ولم يستغرق ذلك إلا قليلاً ، وانقضت الساعة وأتى الغسق ، وكنا نعد آذاننا لنسمع أقل حركة في الطريق . وأوقد المصباح الصغير . وكانت الأم قد صممت ، وأظهر ضوء المصباح المرتجف عظام وجهها وثقوبه ، وأنفها الضخم البارز العظام ، وشفتيها الرقيقتين المزمومتين ، وجهتها بغضونها العميقة تحت منديلها المسترخي . وكانت تبدو منطوية على نفسها ، نائثة النظرات ، ولكنها غائبة عن المكان . وبدأ يظهر على ملامحها التي عذبها التعب والشراسة امتعاض أعمق منهما ، هو امتعاض الغيرة : غيرة العجوز الممتلئة بغضاً . وكنا قد اتينا من الأكل . ولم نكون نجرؤ على الحركة . وفي فترات متباعدة كان زميل إميل يرشقني بنظرات أقرأ فيها : « آه ! لو عرفت ! » ومضى وقت جاهدت لعهده ابنة

العم لتتكلّم ، وكنا نشعر أنها تقاوم همّاً جاثماً لا تدري له من سبب ، وتساءل في قلق وفي فزع غامض . وأخيراً صمتت ، وكان سكّون مطبق لم نعد نسمع فيه إلا دقات خرساء صادرة من ساعة الحائط .

وكنّت قد حفظت تحت مقعدى صاروخاً صغيراً أز معناً إطلاقه عقب الطعام . وكنّت أربت عليه وأعبت بذباله وسط ذلك السكّون المطبق الذى أوشكنا أن نصرخ من وطأته . . . وصاح فى إميل « يا مارسيل ! » وهو يشير بأصبعه ، وعليه مسحة العتاب ، إلى الصاروخ الذى كنّت قد أدنيتّه من المصباح دون أن أشعر . ورأينا برقاً وسمعنا صغيراً : كان الصاروخ قد قفز من أصابعى وانفجر عند السقف .

رَبّت عندئذ ضحكة طويلة مفاجئة عجيبّة ، حتى لقد لسى خطئى نفسه من جرّائها . كانت أم إميل قد نهضت وفى عينيها وحشية ، رافعة ذراعيها ، وأخذ ينبعث من فيها الأسود الأدرم تلك الضحكة العصبية المصحوبة بنفّواق وإغماء . وأخيراً ، صمتت ولكنه كان صمت ادهى : فهاهى ذى المرأة تتطلع إلينا وكأنّها تنكرنا . ثم تغنّى ، تغنّى وهى التى ربما لم تفتح فيها بالغناء منذ طفولتها . كانت أغنية لا حياة فيها ، تجرى على وتيرة واحدة ، ولم تفهم شيئاً من كلماتها . وقد ذكرتنى بتمتة رجل أبله كنا نسير وراءه أحياناً فى الطريق حين عودتنا من المدرسة فى المساء .

ووقفنا جميعاً مذهولين . وكان إميل يصيح والدمع ملء ماقيه : « أماه ! أماه ! » وبنت العم تقول : « يا بنت عمى ! ماذا حدث ؟ » ولكن فوزين كانت تدفعنا بذراعيها مواصلة الغناء بصوت جنونى مرتجف تقطعه أحياناً تهديدات ، أو ضحكات السكر ، أو صمت الدهول . وأخيراً استطاع إميل وابنة عمه أن يقوداها إلى غرفة مجاورة ، وكانت تهتز اهتزازاً جنونياً وتصيح وتصرّ على أسنانها . ثم هبطت واستطاعا أن يحملها إلى فراشها .

وبعد ذلك بقليل ، قالت بنت العم وهى ترفع الأطباق عن المائدة : « لن يحدث شئ ، ربما كان ذلك سوء هضم . لقد استردت قواها ونامت . » وكان إميل منحنياً على بالوعة المطبخ ، يحاول عبثاً أن يقف تزيّفاً من أنفه ، وكان عرضة لذلك لأنّه الأسباب ، كشجار أو موضوع إنشاء أو تأنيب فى المدرسة ،

وعندئذ كان يسيل على ذقنه خيط من الدم . وكان المدرس يقول له : « عليك بتناول شيء من الحديد . »

ولم يعد أبو إميل إلى المنزل إلا بعد ساعة أو ساعتين حين كان الليل قد اكتمل . وكنتُ جالسا على أريكة منزلنا أطلع إلى ظلال القصر والقمر العظيم يلتقي نوره عليه ، أطلع إلى الظلال وهي تغير على الطريق وتجري إلى موطن قديمي . ثم برزت من ناحية النافورة عربية يد يدفعها رجلان ويتبعها صبية ونسوة يتهامون ، فلما صروا أمامي رأيت على العربية جسدا لا حراك به ، كان الكاتب قد عاد من الصيد قبل مواعده العادي بقليل .

### معجزة الأحد

يُنيل إلى أني قد عشقت بنوع خاص بعض أنواع الصمت ، كانت الدنيا تتفتح لي بأجمعها فيها فأبسط نفسي أخيرا وليس بي شيء من الهم . أكانت حياتي أم حياتها تحرك مشاعري وعواطفى حتى تسيل منى الدموع ؟ وما كنا إلا حياة واحدة .

إنى أفكر فى أصاييح الآحاد أيام طفولتى . أصاييح منتظرة ولو أنها تأتى بمعجزة دائمة الجدة . وإنى لأخشى قليلا تذكريها . ولم تكن تبدأ قط فى جهور . حتى ليكن القول إن يوم الأحد الذى يأتى للآخرين بالراحة ، لم يكن بالقياس إلى إلا يوم حزن عظيم . فى بدء اليوم كانت أمتنا تمتكف فى الغرفة لتعاود رؤية آثار فقيدنا : بعض الكتب ، ومزمارة ، وخصلة من الشعر ؛ وكنا نسمعها تبكى كأنها أمام قبر لم يُغلق إلا منذ قليل ، وهى تنادى : « فكتور ! » وعندما تعود إلى المطبخ ، مقطعة الأنفاس من الحزن والصياح ، لم يكن لنا هم أنا وأخى إلا أن نجعلها لا تحس لنا وجودا . ورغم ذلك فقد كان الأحد يوم تغيير ملابسنا ، ويوم تنظيف المطبخ ، ويوم يطهى حساء اللحم على الموقد المتنقل فيسمع له نشيش عظيم . وكان كل ذلك للأسف من أسباب المصاعب والاختلاف والمنازعات . ولقد استطعنا رغم ذلك أن نلبس نفوسنا لباس الأحد ولو أنها لا تذكر يوم أحد واحد مرة بلا صراخ أو ألم أو تهديد بالحقاق عما قريب بفقيدنا .

ولكن لحظة الهدوء كانت تأتي دائماً ، وذلك بعد أن نكون قد يئسنا من إتيانها ، وذلك حوالى آخر الصباح . وكانت أمى بعد أن تغسل وجهها وعنقها تقف أمام المرأة المعلقة فى الحائط وتنزع المشابك من شعرها . وكنت أرقب من ممكن قرب المدفأة ، شعرها الأسود الطويل وهو يسترسل على كتفها وياله عندئذ من صمت مفاجئ ! لم يعد هناك شجار ولا غضب . هدنة مباركة وفضل من السماء . وكان ورق الجدران الضارب إلى الصفرة ، والسقف المنخفض ، والأرض ، والأثاث بنوع خاص ، الأثاث اللامع المتهتر ، كان كل ذلك يفيض بالحـب ويقول : « إني أحيـا » ، ويقول : « إنا نحيا معا ، وليس فى ذلك بأس عظيم . » وكنت أنصت وأنا مسحور لصوت المشط فى شعرها وكأنه صوت الحرير . وكان الريف والأحد الجميل ينتظران حولنا ، والأب هناك خلف القرية وتحت الأرض الرملية يبدو أقل منا مطالب . وياله من صمت ! وهذه السعادة الشاملة التى تجعلنى أضغط أسنانى وأضم يديّ خشية ألا أستطيع السيطرة على نفسى . وكان القوم فى الخارج يرجعون من القداس . وفى المطبخ أريج الحساء يعطره ؛ وفى الحظيرة تتقلب البقرة على فراشها الجديد . وعندئذ وفى ذلك الصمت المطبق كنت أفاجئ أحياناً بـلغط تعقبه سـعلة خفيفة جداً ، ثم تبدأ أمى ، دون أن تشعر ، تردد أغنية لا أدرى أهى من أيام طفولتها أم من أيام خطوبتها . نعم نحن أيضاً ، هذه المرأة الطويلة الواقفة أمام مرآتها ، أمى ، وأخى الذى لا بد أنه يجوب الحديقة ، وأنا بالتأكيد ، أنا الثابت النظرات القابض بشدة على قضبان مقعدى الصغير - نحن أيضاً قد واتانا حظنا وأتتنا هبات السماء .

ثم يستغلق صوت أمى وتتأوح جبهتها فجأة وتلقى إلى من أعلى كتفها بصوت مؤنب : « فيم تضيع وقتك هنا ؟ » تلك خاتمة الساعة وخاتمة المعجزة : معجزة متواضعة ، ولكن يـخيل إلى أن كل ما أتانى منذ ذلك الحين قد وحدثه فى تلك المعجزة .

مارسيل أرنولد

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده